دار الحديث العراقية

تفسيرا

سورة عبس

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة ((**عَبَسَ**)) بهذا سمّاها البخاريُّ في صحيحه ، وكذا في أغلب المصاحب

قال مؤلف التفسير المنير : ((سميت سورة (عبس) لافتتاحها بهذا الوصف البشري المعتاد الذي تقتضيه الجبلّة الإنسانية ، ويغلب على الإنسان حينما يكون مشغولاً بأمرٍ مهم ، ثم يطرأ عليه أمرٌ آخرُ لصرفه عن الأمر السابق ، ومع ذلك عوتب النبي صلّى الله عليه وسلّم على عبوسه تسامياً لقدره ، وارتفاعاً بمنزلته النبوية)) .

وتسمى بـ((**عَبَسَ وَتَوَلَّى**)) كما هو في كثير من المصاحف والكتب ، وتسمى بـ((سورة ابنِ أم مكتوم)) و((سورة الأعمى)) بالنظر إلى مناسبة النزول ، وتسمى بـ((الصاخة)) على ما جاء في هذه السورة من لفظ بارز ، وبعضهم سماها بـ ((سورة السفرة)) .

وهي سورةٌ مكيةٌ في اثنتين وأربعين آية ، وكلماتُها : مئةٌ وثلاثٌ وثلاثون كلمةً ، وحروفُها : خمسُ مئة وثلاثون حرفاً ، وهي أولى السور من أواسط المفصل .

ومنْ بديع ما جاء في هذه السورة أنَّ القرآن ذكرى وموعظة ، ومن كان سفيراً بين الله وبين خلقه بتبليغ آياته ورسالاته كان وجهه مسفراً يوم القيامة ضاحاكاً مستبشراً .

أما مناسبة نزول السورة فقد قال الترمذي في جامعه : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الأُمَوِيُّ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : هَذَا مَا عَرَضْنَا عَلَى هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أُنْزِلَ

: ((عَبَسَ وَتَوَلَّى)) فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الأَعْمَى ، أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَرْشِدْنِي ، وَعِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الآخَرِ ، وَيَقُولُ : أَتَرَى بِمَا أَقُولُ بَأْسًا ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، فَفِي هَذَا أُنْزِلَ.

قال الترمذي : ((هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ ، وَرَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : أُنْزِلَ عَبَسَ وَتَوَلَّى فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ عَنْ عَائِشَةَ)) .
وهذا أحسنُ ما ورد في هذا ، وقد أخرجه الطبريُّ وابنُ حبان والحاكم والواحديُّ .

قال الحاكم : ((أرسله جماعة عن هشام بن عروة ، عن عروة ليس فيه ذكر عائشة)) وقد صوّب الذهبيُّ الإرسالُ .

والروايةُ المرسلةُ أخرجها الإمام مالك في (الموطأ) عن عروة ليس فيه عائشة ، ومراسيل عروة جِياد ، والراجح في هذه الراوية الإرسال ، وهذا نموذج للمرسل المقبول الذي احتفت به القرائن ، وهو ينطبق على ما أصله الشافعي في شروط قبول المرسل ، وهو منهج أهل الحديث كما بينته في الجامع في العلل والفوائد ؛ فالحديث له شاهد من مرسل قتادة أجرجه الطبري ، وله شاهد من مرسل الضحاك أخرجه الطبري ، وله شاهد من مرسل مجاهد أخرجه الطبري ، وكذا من مرسل الحسن .

قال الرازي : ((أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ الَّذِي عَبَسَ وَتَوَلَّى ، هُوَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأَعْمَى هُوَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ)) . وكذا قال الرَّسعني الحنبلي .

أما أغراضها فهي كما قال ابن عاشور : ((تَعْلِيمُ اللهِ رَسُولَه – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمُوَازَنَةَ بَيْنَ مَرَاتِبِ الْمَصَالِحِ وَوُجُوبَ الاستقراء لخفياتها كَيْلا يُفِيتَ الِاهْتِمَامُ بِالْمُهِمِّ مِنْهَا فِي بادىء

الرَّأْيِ مُهِمًّا آخَرَ مُسَاوِيًا فِي الْأَهَمِّيَّةِ أَوْ أَرْجَحَ . وَلِذَلِكَ يَقُولُ عُلَمَاءُ أُصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ عَلَى الْمُجْتَهِدِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ مُعَارِضِ الدَّلِيلِ الَّذِي لَاحَ لَهُ . وَالْإِشَارَةُ إِلَى اخْتِلَافِ الْحَالِ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْ هَدْيِ الْإِسْلَامِ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُقْبِلِينَ عَلَى تَتَبُّعِ مَوَاقِعِهِ . وَقَرْنُ ذَلِكَ بِالتَّذْكِيرِ بِإِكْرَامِ الْمُؤْمِنِينَ وَسُمُوِّ دَرَجَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالثَّنَاءُ عَلَى الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمُهُ لِمَنْ رَغِبَ فِي عِلْمِهِ . وَانْتُقِلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى وَصْفِ شِدَّةِ الْكُفْرِ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ بِمُكَابَرَةِ الدَّعْوَةِ الَّتِي شَغَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَى رَغْبَةِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ .

وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى إِثْبَاتِ الْبَعْثِ ، وَهُوَ مِمَّا كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ حِينَ حُضُورِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَذَلِكَ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا عُنِيَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ حَيْثُ إِنَّ إِنْكَارَ الْبَعْثِ هُوَ الْأَصْلُ الْأَصِيلُ فِي تَصْمِيمِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى وُجُوبِ الْإِعْرَاضِ عَنْ دَعْوَةِ الْقُرْآنِ تَوَهُّمًا مِنْهُمْ بِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْمُحَالِ ، فَاسْتُدِلَّ عَلَيْهِمْ بِالْخَلْقِ الَّذِي خُلِقَهُ الْإِنْسَانُ ، وَاسْتُدِلَّ بَعْدَهُ بِإِخْرَاجِ النَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ مِنْ أَرْضٍ مَيْتَةٍ . وَأُعْقِبَ الِاسْتِدْلَالُ بِالْإِنْذَارِ بِحُلُولِ السَّاعَةِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَبِمَا يَعْقُبُهَا مِنْ ثَوَابِ الْمُتَّقِينَ وَعِقَابِ الْجَاحِدِينَ . وَالتَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْمُنْكِرِينَ عَسَى أَنْ يَشْكُرُوهُ .

وَالتَّنْوِيهُ بِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَعُلُوِّ قَدْرِهِمْ وَوُقُوعِ الْخَيْرِ مِنْ نُفُوسِهِمْ وَالْخَشْيَةِ ، وَأَنَّهُمْ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَصْحَابِ الْغِنَى الَّذِينَ فَقَدُوا طَهَارَةَ النَّفْسِ ، وَأَنَّهُمْ أَحْرِيَاءُ بِالتَّحْقِيرِ وَالذَّمِّ ، وَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْكفْر والفجور)) .

أما مناسبة نزول هذه السورة مع ما قبلها : هو أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى ذكر فيما قبلها أنَّه منذر من يخشاها ، وذكر في سورة (**عَبَسَ**) حال من ينفعه الإنذار من عباد الله المخلصين فيسعى إلى الخير بنفسه ، ويعمل ما يزكي نفسه ويطهر قلبه ، وذكر الذين لا يخشون فلا تنفعهم موعظة الواعظين ، ولا تذكرة المذكرين .

فالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم كان مشغولاً بدعوة الأكابر من قريش ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً على هدايتهم عسى أنْ يكون ذلك سبباً في هداية من ورائهم ، وفي تلك الأثناء كان مجيء ابن أم مكتوم وسؤالُه النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنْ يعلمه ، فوجد النبي صلى الله عليه

وسلم في نفسه عليه فعبس النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بوجهه وتولى عنه ، وأقبل بما هو مشغولٌ به من توجيه القوم على قاعدة المشغول لا يشغل ، ونظر إلى المصلحة الأكبر على المصلحة الأدنى ، وهذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهادٌ آنيٌّ ، وهو كما قيل : ((موقفٌ عابرٌ وخاطرٌ طائر ، لم يكن له استقرارٌ ولا ثبات)) وبعد هذا ماذا كان ؟! ينزلُ الوحي بقرآن يتلى إلى يوم القيامة استدراكاً على اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيان للمصلحة التي رآها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مصلحةً ، في الوقت الذي كان ينزل الوحي فيه مسلياً مصبراً ، فإذا به يحمل عِتاباً ربانياً وبياناً لحال المصلحتين وما المقدمُ في ذلك ؛ ليكون ذلك نبراساً للأمة وتعليماً للأئمة حتى لا تغرق سفينة الإسلام ، فكان في هذه السورة دروسٌ وعبرٌ = دروسٌ في الاجتهاد والمصالح دروس في الصبر دروس في التواضع دروس في إكرام فقراء الأمة .

قال الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني علينا وعليه رحمة الله : ((ومن الملاحظ أنَّه عتابٌ عَلِيٌّ مُدونٌ في قرآنٍ يُتلى ، لِيتعظ به حملةُ رسالة الرسول من أمته)) .

قال تعالى : ((**عَبَسَ وَتَوَلَّى**)) . أي : عبس وجه النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بمعنى : كلح وقطب وتجهم وانقبض لأجل أنْ جاءه الأعمى تقبض عن كراهية واستياء ، ((**وَتَوَلَّى**)) أي : أعرض ببدنه ، فالعبوس بالوجه والتولي بالبدن .

وجاء الخطاب ((**عَبَسَ**)) على صيغة الغيبة تلطفاً في عتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتأمل أخي الكريم ، كيف أنَّ اللهَ عاتب نبيه صلى الله عليه على لمحة العبوس ، والتولي عن رجل من المسلمين سأله وهو مشغولٌ ، بل منهمك في مصلحةٍ تكاد تكون عظيمةً للإسلام والمسلمين . وفيه دروسٌ وهو أنَّ مقام النبوة والإمامة في الدين لا ينبغي أنْ يكون فيه مثل هذا ، ثم إنَّ فيه التفاتاً عظيماً منذ البداية على الاهتمام بالرعية والاهتمام بالفقراء والمساكين والأيتام ،

ولما كان ذلك كذلك كان أكثرُ من يستجيب ويلتف حول النَّبيّ صلى الله عليه وسلم الفقراءَ والمساكينَ ؛ لعظيم اهتمام النَّبيّ صلى الله عليه وسلم بهم ، حتى كان سؤال هرقل لأبي سفيان : ((أَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قال : بل ضعفاؤهم)) .

إذن كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حريصاً على هداية القوم ، وهو الذي حمل النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم على العبوس بالوجه والإعراض ، ومن هذا وغيره أخذت القاعدة : ((عدم ترك الأمر المعلوم للأمر الموهوم)) بمعنى : لا تترك المصلحة المحققة للمتوقعة ؛ إذ إنَّ ابنَ مكتوم مسلم يريد التزكي بالعلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح ؛ فتقديمُهُ مصلحةٌ مؤكدةٌ مقدمةٌ على احتمال إسلام القوم . وعلى ذلك تكون العناية بالمقبل أكثر من المعرض ؛ لأنَّ له سابقةً ومبادرةً ، والإعراضُ عنه قد يفضي إلى تأخره ؛ لذا كانت دعوة المسلمين مقدمة على دعوة الكفار ، على أنَّه لا يجوز أنْ تترك دعوة الكفار ، ولا يجوز أنْ نهمل تبليغ رسالات الله إليهم بكل ما نستطيعه . وكذلك يجب دعوة المفرطين الضالين المنحرفين ، على أنَّ تعليم المهتدين مقدمٌ ، والمسلمُ يوازنُ ويقارنُ فيقدمُ الأنفعَ لأمته ودينه ونفسه .

وتأمل أنَّ الله كشف ما كان من الرسول من عبوس وتولٍ لا يراه الأعمى ، ليعلمنا أنَّه ليس من أدب الإسلام أنْ نواجه العميان بما يكرهون من أعمال أو حركات مع عماهم .

إذنْ هذا عتابٌ من الرب الرحيم الكريم للنَّبيّ صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله رحمةً للعالمين ، قال تعالى : ((**أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى**)) في هذه الآية الكريمة بيانُ سبب العتاب ، وبيانُ الأمر الذي حصل منه العتاب ، وقد وصفهُ اللهُ بصفته لا باسمه ولا بغير ذلك بياناً لعذر هذا الصحابي الجليل الذي بدر منه السؤال بغير قصد انهاك النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ، فهو معذورٌ بالعمى ، وذلك سببُ التخفيف عليه . والأعمى من اتصف بالعمى ، والعمى : افتقاد البصر .

قَالَ الشَّيْخُ الشنقيطيُّ- رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - فِي كتاب دَفْعِ إِيهَامِ الِاضْطِرَابِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ((**أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى**)) مَا نَصُّهُ : عَبَّرَ تَعَالَى عَنْ هَذَا الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ - الَّذِي هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ - بِلَقَبٍ يَكْرَهُهُ النَّاسُ ، مَعَ أَنَّهُ قَالَ : ((**وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**)) .

وَالْجَوَابُ : هُوَ مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مِنْ أَنَّ السِّرَّ فِي التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِلَفْظِ " الْأَعْمَى " ; لِلْإِشْعَارِ بِعُذْرِهِ فِي الْإِقْدَامِ عَلَى قَطْعِ كَلَامِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَرَى مَا هُوَ مُشْتَغِلٌ بِهِ مَعَ صَنَادِيدِ الْكُفَّارِ لَمَا قَطَعَ كَلَامَهُ.

وقد حصلتْ الواقعة والإسلام في بداياته حينذاك فابن أم مكتوم من السابقين في الإسلام والإسلام يحترم الجميع ولا ينظر إلى تقديم البصير على الأعمى ، بل المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم . وكان من الممكن أنْ يكون العتاب سِرياً يراه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في رؤيا أو ينزل به جبريل سارّاً به النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ولكنَّه جاء العتابُ بقرآن يُتلى إلى يوم القيامة في كتاب مُقدس ؛ ليُعلم أنَّ هذا هو منهج الله الذي يريده للبشرية ، وليرفع قدر النَّبِّي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وهذا من وجوه :

الأول : تزكيةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وأنَّ هذا القرآنَ وحيٌ من الله أوحاه الله إليهُ ، ولو كان من عنده لما أتى بما فيه عتاب له ، ولهذا نظائر عديدة جمعها الشيخ محمد عبد الله دراز في كتاب نفيس له سمّاه (النبأ العظيم) .

الثاني : استجابة دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقد دعا وقال : ((**اللهُمَّ إِنِّي اتَّخَذْتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ ، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ سَبَبْتُهُ ، أَوْ جَلَدْتُهُ ، فَاجْعَلْ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)) أخرجه مسلم في صحيحه ، فقد جعل الله من ذلك العبوس والتولى تزكيةً من الله إلى يوم القيامة ، وقد خُلِّد ذكرُهُ مع الثناء عليه ، نسأل الله الرحمة لنا وله ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم أجمعين .

الثالث : بركة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فلولا عتابُ الله نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم لما نزلتْ تزكيةُ الله لعبد الله بن أم مكتوم كما في الآية الثامنة والتاسعة .

وللمفردة القرآنية سببٌ نافعٌ فقد جاء ذكر عبد الله بن أم مكتوم بوصفه إشعاراً بعذره في عدم معرفته بانشغال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وترقيقاً لقلب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لأجل ما ابتلاه الله به وهو العمى ؛ إذ يحتاج مثله من الرعاية ما لا يحتاجها غيره .

ثم قال تعالى : ((**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى**)) أي : وأيُّ شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى ؟ وهنا تلمس من العتاب اللطف والرفق ، وفيه الحث على بناء الشخصية والحث على الصبر والترقي . و(ما) استفهامية بمعنى ، لعل الرجل الأعمى الذي أعرضت عنه يتزكى بسؤاله وجوابك له ليتخلى عن ما لا ينبغي ويتحلى بالفضائل . وفي هذه الآية تزكيةٌ لهذا الأعمى الجليل بدليل هذه الآية ، ولقوله تعالى : ((**وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى**)) .

وفي معنى التزكي التطهرُ من الذنوب ، وقيل : يحفظ ما تتلوه عليه من القرآن ويتفقَّهُ في الدين كما قال العز بن عبد السلام .

ثم قال تعالى : ((**أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى**)) وفي معنى (**يَزَّكَّى**) التخلي عن الذنوب وفعل أفعال البر فهي تخلية وتحلية ، وأما : (**يَذَّكَّرُ**) فهو التفكر والتدبر لأجل العظة بما يؤول إلى دفع المفسدة وتحقيق المصلحة .

قال مكمل تفسير أضواء البيان : ((فَهَذَا كَفِيفُ الْبَصَرِ، وَلَكِنْ وَقَّادُ الْبَصِيرَةِ أَبْصَرَ الْحَقَّ وَآمَنَ ، وَجَاءَ مَعَ عَمَاهُ يَسْعَى طَلَبًا لِلْمَزِيدِ)) .

ثم قال تعالى : ((**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى**)) وهذا من جنس العتاب فهو التشاغل عن الأعمى بمن استغنى عن الحق وقبوله ، أي : أما منْ عدَّ نفسه غنياً عنك ، وعن الإيمان بك فأنت تتعرض له .

((**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**)) بمعنى تصدد إليه ، أي : تلتفت وتتوجه إليه وتدعوه ، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يطمع في إسلامهم طمعاً في إسلام أتباعهم ، وهذا بيانُ حرص النَّبيّ صلى الله عليه وسلم على استجابة أمة الدعوة .

ثم قال تعالى : ((**وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى**)) وهذه آيةٌ عظيمةٌ تُبيّنُ لنا خطورة التقصير في الدعوة إلى الله ، ومعنى الآية : إذا قمتَ بالواجب وبلغتَ الدعوةَ ثم لم يستجب المدعو فليس عليك وزره ، أي : ليس عليك تبعته بعد أنْ أقمت الحجة وأديت ، واجب البلاغ . وهذا نحو قوله تعالى : ((وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ)) .

ثم قال تعالى : ((**وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى**)) فهذا شهادة من العلي الجبار لعبد الله بن أم مكتوم أنَّه يخشى ، وهذا من بركة النبي صلى الله عليه وسلم فلولا هذا العتاب لما نزلت تزكية ابن أم مكتوم الخاصة ، وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مزكون عموماً في كتاب الله .

(**وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى**)) أي : أمَّا هذا الأعمى الذي يحث الخطى إليك بنفسه مستعيناً بعصاه أو بغيره ، وقد وَقَرَ في قلبه الخوف من الله ، فأنت تنشغل عنه بالمظنون إسلامُهم .

(**وَهُوَ يَخْشى**) أي : وهو يخشى الله ، ويخاف عقابه ، ويرجو ثوابه ويُعظّم في قلبه محبتَه .
(**يَسْعى**) يسرع في طلب الخير.

قال تعالى : ((**فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى**)) ما زال العتاب قائماً ، والعتاب في تلهي النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أي شيء كان يتلهى كان يتلهى بدعوة عن دعوة وبمهم عن أهم .

ثم جاء النهي عن مثل هذا فقال تعالى : ((**كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَة**)) و (كلا) ردع وزجر فهو نهيٌ شديد عن العود لمثل هذا .

والقرآن تذكرة يتذكر به المؤمن أمر ربه ، فهو تذكرة وعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

((**تَذْكِرَة**)) تُذكر الإنسانَ بما يَنفعُهُ وتَحثُّه عليه ، وتُذكر له ما يضُّره وتحذره منه ويتعظ بها القلب .

((**كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَة**)) أي : ما الأمر كما فعلت من أنْ تعبس في وجه من جاءك يسعى ، وتقبل على غيره ، بل إنَّ الآيات موعظةٌ وتذكرةٌ لمنْ أراد أنْ يتذكر .

وفي وصف القرآن بالتذكرة إشارةٌ أنَّ المطلوب كثرةُ القراءة وكثرة الاستماع ، وأنَّ تكرير آياته في الصلوات وفي بقية الأوقات يجعلُ منْ أبرز صفاته أنَّه ذكرٌ يطالبُ المؤمنونَ به أنْ يذكروه دواماً بألسنتهم وأنْ يتذكروا ألفاظَهُ وأنْ يتذكروا معانيه بأفكارهم .

والذكرى هو القرآن يذكر الناس بما يغفلون عنه ، قال تعالى : ((**وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين**))

((**فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه**)) فلا تحزنْ ولا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ فقد أديتَ ما عليك ، ومن أراد الاتعاظ صادقاً في إرادته ينتفع بالقرآن ويحصل له الاتعاظ .

((**فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ**)) أي : فمن شاء أنْ يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح ، ومن شاء غير ذلك خسر وضاع ، فالجملةُ الكريمةُ لتهديد الذين يعرضون عنِ الموعظة ، وليستْ للتخيير كما يتبادرُ من فعل المشيئة نبّه عليه صاحب (التفسير الوسيط) .

قال ابن عباس : ((فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به)) .

((**فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَة**)) وقد وصف الصحف بأنَّها مكرمةٌ لأنَّها من الكريم سبحانه وتعالى ، وقد تنزل بها جبريل وهو ملك كريم ، على نبيٍّ كريم لأمةٍ هي أكرمُ الأمم في ليلةٍ هي أعظمُ الليالي ، وهي ليلةُ القّدْر التي شُرفت بالقرآن ، كما شرف الوادي بمناجاة الكليم للرحمن ، ووصفها بأنَّها (**مَرْفُوعَةٍ**) لأنَّها رفيعةُ القدْر .

((**مُطَهَّرَة**)) من الخطأ واللغو والباطل ، ومن كل خلل ، وقد أذن الله بتطهيرها ورفعتها وأنْ لا يمسّها إلا المطهرون .

((**بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَة**)) هم الملائكة كرام عند الله بالقرب والشرف ، ففي الصحيحين من حديث عَائِشَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ)) .

ويدخل في السفرة الكرام البررة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فهم الذين نقلوا القرآن لنا غضّاً طرياً ، ويدخلُ في ذلك حملةُ القرآن عبر العصور إلى يومنا هذا من حفظة نقلوه وأئمة فهموه وعلّموه الناس ، والسفرةُ جمعُ سافر فنقلتُهُ بحق سفراء الله إلى الناس ، وهذا من حفظ الله لكتابه فقد حفظه الله من الشياطين بالملائكة السفرة ، وحفظه الله من التغيير والتبديل بحملته العدول الذين ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين .

((**كِرَامٍ بَرَرَة**)) أي : هؤلاء السفرة كثيروا الطاعة ، والكريم هو الشريف من جنسه الذي من شأنه يأتي بالخير .

ثم قال تعالى : ((**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَه**)) وفي هذه الآية ملمحٌ مهمٌ مع السياق والسباق فمهمةُ الدعاة والرسل تبليغُ الدعوة وإقامةُ الحجة ، وأنَّه لا عذرَ لمن بلغته الدعوة إذا تولى وكفر

فحينذاك حقَّ عليه القول ، ومما حق عليه قوله تعالى : ((**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَه**)) فهو دعاء وزجر وتوبيخ وتأنيب ، وأنَّه مستحق للموت ما دام ليس في قلبه إيمانٌ ولا حياءٌ فالموتُ أجدرُ به ، فهو دعاءٌ عليه بأشنع الدعوات ؛ إذ إنَّ القتل غايةُ الشدائد في الدنيا ، والقتلُ بغير حق أفظع الجرائم ، ويدخل في معنى (**قُتِلَ**) لعن وهو إهلاك روحي فهو أشد العقوبات.

وهذا الدعاءُ على وجازته يدل على سخطٍ عظيمٍ وذمٍ بليغٍ وهو عامٌّ في كل منْ كفر نعمةَ الله والدُّعَاءُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِنَّمَا يَلِيقُ بِالْعَاجِزِ الذي يدعو ويطلب من القادر وَربنا هو الْقَادِرُ عَلَى كلِّ شيءٍ ألا فاعلموا أَنَّ ذَلِكَ وَرَدَ عَلَى أُسْلُوبِ كَلَامِ الْعَرَبِ معناه : أَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا أَعْظَمَ أَنْوَاعِ الْعِقَابِ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ أَتَوْا بِأَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْقَبَائِحِ .

والدعاءُ بالسوءِ منَ الله مستعملٌ في التحقير والتهديد لظهور أنَّ حقيقة الدعاء غير مرادة ؛ لأنَّ الله هو الذي يتوجه الناس إليه بالدعاء فالمقصود التحقير وأنَّ المدعو عليه يستحق الشين ثم إنَّ هذا أسلوب تعجيب ((قتل الإنسان ما أكفره)) تعجبٌ وتعجيبٌ من إفراط كفره ، مع كثرة إحسان الله إليه ، فالاستفهام على طريق التوبيخ والتقرير .

قال تعالى : ((**مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**)) . وفي هذه الآياتِ تذكيرٌ للإنسان العاتي عن أمر ربه بأصله الذي خلق منه حتى لا يتكبر ، فالكبر بطر الحق وغمط الناس ، وأيُّ كبرٍ أعظم من الإعراض عن آيات الله ، وخَلقُ الإنسانِ منْ نطفةٍ توجبُ له أنْ يخضعَ لقدرة الخالق الرازق ، ولا تُهيءُ له أنْ يتعاظم أو يتكبر ، فالمقصودُ هنا هو جنسُ الإنسان . وقوله تعالى : ((**مَا أَكْفَرَه**)) ليس مقصودُهُ الكفرَ الأكبرَ فحسب ، بل يَدخلُ فيه كفرُ النِّعمة بدليل ما ذكر بعده من تعداد النعم ، ومعنى ((**مَا أَكْفَرَه**)) ما أشدَّ كفرهُ وعنادَه ومخالفتَه .

وتأمل قوله تعالى : ((**مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**)) هذا سؤالٌ ليتفكرَ الإنسانُ أنَّه مخلوقٌ وأنَّ للخالق حُقوقاً على المخلوق ، والخالقُ هو الذي يُوجدُ منَ العدمِ ويُحولُ الجمادَ الهامدَ الرميمَ إلى حيٍّ متحركٍ عاقلٍ متكلمٍ واعٍ مفكرٍ ، فالخالقُ هو اللهُ وهو الذي له الأمر . واللهُ الخالقُ أمرَ الإنسانَ أنْ يُفكرَ مم خُلق ؛ ليتفكرَ بعظمةِ الخالق القادر ويخضع ولا يتكبر ، إذ كيف يتكبرُ وهو قد

خلق من نطفة ضعيفة ليس لها قوامٌ ولا يخلقُ فيها الحياةَ إلا اللهُ الواحدُ القهارُ فقد قال تعالى : ((**مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ**)) يقول علماء الأحياء المجهرية : إنَّ النطفة الواحدة التي يقذفها الرجل تحتوي على خمس مئة مليون حيوان منوي من واحد يتكون الجنين ؛ إذ تتسابق في رحم المرأة وأجهزتها التناسلية حتى يظفر واحد منها بنطح جدار البُييضة وكسره للاتحاد بنواتها .

ومع ذكر النطفة فإنَّ قبلها مقدمات وحلقات منها : الدم والغذاء والماء والتراب ، وبعد النطفة مراحل منها : العلقة والمضغة ثم الجنين .

((**مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**)) والفاء في اللغة العربية تفيد التعقيب ، فبعد التخصيب جاء التقدير مباشرة في تفاعل الكروموسومات ؛ ليتدرج المخلوق طوراً طوراً وطبقاً عن طبق ، وفي ذلك التصوير قال تعالى : ((**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)) .

((**مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ**)) بيّن اللهُ في هذا أصل مادة خلق الإنسان ، وأنَّ تلك المادة قليلةٌ جداً تخرج من موطن البول ، وأنَّ الله بحكمته وقدرته قدّره بعد ذلك أطواراً في الخلق حتى صار حملاً .

وطرحُ السؤال وإتباعُهُ بالجواب أسلوبٌ مهمٌ منْ أساليب البيان والتعليم ؛ لأنَّ طرحَ السؤال يُحركُ الذهنَ للتفكير في الجواب .

ثم قال تعالى : ((**ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَه**)) معناه : ثُمَّ يسره للسبيل ، وكما أنَّ الفاء للتعقيب فإنَّ ثم للتراخي فثمةَ مدةٌ منْ أول الحمل وحتى الوضع ، والهاء في (يسره) تعود على السبيل بمعنى يسر السبيل ، والمقصود خروج الجنين من رحم المرأة ، وفيه تذكيرٌ بحقِ الأم وصبرِها على خروج الجنين ، وفي ذلك آيةٌ وعبرةٌ . ويَشملُ قولُهُ تعالى : ((**ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَه**)) طريق الخير والشر الهدى والضلال كما قال تعالى : ((**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**)) .

قال تعالى : ((**ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَه**)) هذا انتقالٌ إلى مرحلة الموت ؛ والموتُ : سلبُ الحياة عن النفوس التي سبق أنْ منحها اللهُ الحياة ، والمميتُ في الحقيقة هو اللهُ بقضائه وقدره وفعله وأمره وأذنه ، فإنَّ الله قد خلق لكل إنسان أنفاساً معدودةً وساعاتٍ محدودةً عند انقضائها تقفُ دقاتُ قلبِه ويُطوى سجلُهُ ويُحالُ بينَه وبينَ هذه الدار ، ومع هذه الحقيقة لكل إنسان فإنَّ الله ذَكّر بنعمة القبر كما قال تعالى : ((**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا**)) وفي قوله : ((**فَأَقْبَرَه**)) امتنانٌ بكمال التشريع ؛ إذ إننا مأمورونَ بتغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه ثم الحفر والدفن ، وهذه سنةُ الله في عباده . ((**فَأَقْبَرَه**)) أي : جعله في قبر يوارى فيه تكرمةً له ؛ إذ كرّم اللهُ بني آدم وحملهم في البر والبحر ، ومن التكريم أنَّه لم يتركه مطروحاً على وجه الأرض .

كرّم اللهُ جسدَ الإنسانِ بالإقبار هدايةً وتشريعاً منذ أو البشرية ، قال تعالى : ((فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)) . قال أبو السعود : ((وعَدُّ الإماتةِ من النعمِ لأنَّها وصلةٌ في الجُملةِ إلى الحياةِ الأبديةِ والنعيمِ المقيم)) .

وتأملوا قصر رحلة الإنسان فما أقصرها من رحلة ((**مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ**)) ثلاث آيات تختصر الحياة تأملوها جيداً .

ثم قال تعالى : ((**ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَه**)) أي : حينما يشاء الله تعالى يبعثه للحساب والجزاء والقصاص ، فقَوْلُهُ : ((**ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**)) أَيْ : بَعَثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)) والنشر لا يكون إلا بعد طي ، وقد كان الإنسان حيّاً ، ثم طويتْ حياتُهُ بالموت ، ثم ينشر بعد طيٍّ بالبعث والحياة بعد الموت .

وفي العطف بـ((ثُمَّ)) تقريرٌ أنَّ البعث يأتي بزمن مقرر عند الله ، وهم كانوا يستعجلونه كما قال تعالى : ((**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**)) فالبعثُ والنشورُ بأمرِ الله لا باستعجالهم .

وَفِي قَوْلِهِ : ((**إذا شاءَ**)) رَدٌّ لِشُبْهَتِهِمْ إِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ تَعْجِيلَ الْبَعْثِ تَحَدِّيًا وَتَهَكُّمًا لِيَجْعَلُوا عَدَمَ الِاسْتِجَابَةِ بِتَعْجِيلِهِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ أَنه يَقع عِنْد مَا يَشَاءُ اللَّهُ وُقُوعَهُ لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَسْأَلُونَهُ ؛ لِأَنَّهُ مَوْكُولٌ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ ، وَاسْتِفَادَةِ إِبْطَالِ قَوْلِهِمْ مِنْ طَرِيق الْكِنَايَة .

قال تعالى : ((**كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَه**)) أي : لم يؤد ما عليه من حق الله ، والعبد مهما اجتهد فلن يؤدي حقَ الله كاملاً موفراً ، ولم يتدبر كتابَ الله حقَ التدبر ، ولن يؤدي حق القرآن تمام الخدمة والرعاية ، ولا السنة النبوية الشارحة لكتاب الله تعالى ، وقد دل على هذا التأويل ما بعده ؛ إذ شرع الله في تعداد نعمه على عباده ليشكروها وينزجروا عن كفرانها .

قال تعالى : ((**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِه**)) وهذا أمرٌ جازمٌ حازمٌ بالنظر إلى الطعام ، أي : فلينظر الإنسان إلى طعامه الذي جعله الله سبباً لحياته ؛ إذ إنَّ النظر في الطعام يُدلل الإنسان على نعمة الخالق وقدرته . والفكر بالنعمة أنَّها نعمةٌ نعمةٌ يُؤجر الإنسان عليها كما أنَّ حمد الله نعمةٌ توجبُ على العبد حمدَ الله عليها قال الشافعي : ((الحمد لله الذي لا يُؤدى شُكر نعمةٍ من نِعَمِهِ ؛ إلا بنعمة منه توجب على مؤدي ماضي نعمه بأدائها نعمةً حادثةً ، يجب عليه شكرُهُ بها)) .

وكما أنَّ الإنسان يؤجر بتدبر الكتاب فهو يؤجرُ بتأملِ النِّعم والنظر في روعة الخلق ، واللافت للنظر أنَّ الله ذكر ذلك بعد ذكر نعمة القرآن ، وبعد خلق الإنسان كما قال تعالى : ((**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**

شَهِيدٌ)) وقال تعالى : **((وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ))** .

إذن سورة درس اليوم فيها الأمر بما يتكرر لنا كل يوم **((فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ))** .

والنظرُ المأمورُ به هو نظرُ اعتبارٍ وإيمانٍ ، فيعتبر المرء بما حوله ، ويقوده ذلك الاعتبارُ إلى الإيمان بالله ، وإلى الحكمة منَ الخلق ، فالنظرُ يَسوقُ إلى العمل كما قال تعالى : **((وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ))** ويقودُ النظرُ إلى رحمةِ الله وإلى صفاته المعلومة في أسمائه الحسنى ، ويكونُ النظر نظرَ اعترافٍ بمنّةِ الرحمن لتحقيق الشكر ، فالمرءُ إذا نظر إلى الطعام عملَ إلى أداء شكر الله الذي أعطاه .

((فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)) فِيهِ امْتِنَانٌ من الرازق الملك الديان، وَفِيهِ اسْتِدْلَالٌ بِإِحْيَاءِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الْهَامِدَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَجْسَامِ بَعْدَمَا كَانَتْ عظَاماً بَالِيَةً وَتُرَابًا .

وفيه تذكيرُ قوّتِهِ وعجيبُ حكمته ؛ ليعلموا أنَّه قادرٌ على كلِّ ما يريدُ فعلُهُ ؛ لا يَضعفُ عن ذلك ، ولا يُعجزِهُ شيءٌ .

ثمَّ فصّل ربُنا نعمَهُ على عِباده فقال تعالى : **((أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا))** والمقصود المطر ، والمطر يسوقه الله رحمةً للعباد .

ونتيجةُ المطر ما قاله تعالى : **((ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا))** أي : بالنبات ، والنباتُ لا ينبتُ إلا بالماء كما قدّره الله ، ولما ذكر ربنا ذلك ساق عدداً من النعم فقال تعالى : **((فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا))** فالحبُ هو كلُّ ما يحصد من الحنطة والشعير والقمح والأرز ، وهي قوتٌ للإنسان ، وتكونُ أحياناً قوتاً للانعام ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ الحب ؛ لأنَّه كالأصل في الأغذية .

فالمراد بالحب جنس الحبوب التي يُتقوتُ بها وتُدخرُ كالحنطة والشعير وغيرها .
وذكر ربنا العنب ، وهي من أجود الفاكهة مفيدةٌ للهضم مع لذة المطعم وفكاهة المأكل ، وتكون قوتاً إذا جففت زبيباً ، ويتخذ منه الخل ويؤكل رطباً .

والقضب : هو القت وهو يحصد مرة بعد مرة ، وهو ما تأكله النعم .

والزيتون زيته نافع وورقه علاج للسكري ونحو ذلك من المنافع الكثيرة .

والنخل كلُّ ما فيه ، وكلُّ ما يخرج عنه نافع ، وثمرُ النخل يؤكل بسراً ثم يؤكلُ رطباً ثم يؤكل تمراً ، وبعض أنواعه يؤكل خلالاً ، ويؤكلُ جُمّاره ويُتخذُ من نوى التمر علفاً لإبلهم ، فضلاً عن اتخاذهم البيوت والأواني من خشبه والحصر من سعفه والحبال من ليفه .

والحدائق هي الأشجار الملتفة الكثيفة التي تُحدقُ بالمكان ، ففيها ثمارٌ وجمالٌ وتنقيةٌ للهواء .

و(غلباً) ، هي المتينةُ التي يلتفُ بعضُها على بعض .

والفاكهة : ما يتفكه به الناس من أنواع الفواكه بألوانها وطعومها ، فالفاكهة : الثمار التي تؤكل للتفكه لا للاقتيات .

والأب : هو ما تنبته الأرض من الحشيش والمرعى .

وهذه المذكورات المؤمور النظر إليها اعتباراً وامتثالاً بعضها مما يأكلها الإنسان وبعضها مما يؤكلها الحيوان وبعضها مشترك ، وفي ذلك ملمح إلى أمرين :

الأول : إنَّ النعم التي تأكلها الأنعام يعود فيئها إلى بني الإنسان بيضاً ولحماً ولبناً ، وكذا الجلود والصوف وغيرها .

ثانياً : التنبيه أنْ يكون طعام بني الإنسان على غير طريقة الحيوان ، إذ ينبغي للآكل أنْ يفكر بعقله عظيمَ فضل المنعِم ليسوقه ذلك إلى شكر المنعم .

قال الطبري : ((وأصل الأنعام الإبل ، ثم تستعمل في كل راعية)) .

ثم اعلموا أنَّ الله عزّ وجل قد أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، في الأكل والشَّراب ، فالأكلُ والشَّرابُ علينا فيهما نِعَمٌ سابقةٌ ولاحقةٌ .

أمّا السَّابقة : فإنَّ هذا الماء الذي نشربه ويعيش به ما نعيش عليه ما جاء بحولنا ولا بقوتنا ، قال الله تعالى: ((**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ**)) وقال تعالى : ((**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ**))، وقال تعالى : ((**فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**)) .

فتفكروا بنعمة الله عليكم بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض

والطعام الذي نأكله قال الله تعالى عنه : ((**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**)) فهذه نِعْمَةٌ عظيمةٌ من الله ، فهو الذي زَرَعهُ ، ونمَّاهُ حتى تكامل ، ويسَّرَ لنا الأسباب التي تُيسِّرُ جنيه ، وحصاده ، ثم طَحْنه وطَبْخه ، إلى غير ذلك من النِّعَم الكثيرة .

قال بعض العلماء : إنَّه لا يُقدَّم الطعام بين يديك إلا وفيه ثلاثمائة وستون نِعْمَة ، هذا الذي يُدْرَكُ فكيف بالذي لا يُدْرَك؟

ثم بعد ذلك نِعَمٌ عند تناوله ، وعندما تأكله على جوع وتتلذ به .

وعندما تطعمه في فمك تجد لذَّة ، وعندما يمشي في الأمعاء لا تجد تعباً في ذلك ، وعندما يتحول من حال إلى حال .

ثم إنَّ الله تعالى خلق غُدَداً تُفرِز أشياء تُلَيِّن هذا الطعام وتخفِّفه حتى ينزل .

ثم إنَّ الله عزّ وجل جعل له قنوات يذهب معها الماء ، وهناك عروق شارعة في هذه الأمعاء تُفرِّق الدَّمَ على الجسم ؛ توصله إلى القلب .

ثم إنَّ هذا القلب الصَّغير في لحظة من اللحظات يُطهِّرُ هذا الدَّمَ ثم يخرجه إلى الجانب الآخر من القلب نقيًّا ، ثم يدور في البدن ، ثم يرجع مرَّة ثانية إلى القلب فيطهِّره ويصفيه ، ثم يعيده نقيّاً ، وهكذا تستمر الدورة الدموية .

والقلب يُصْدِرُ نبضات ، كلُّ نبضة تأخذ شيئاً ، والنبضة الأخرى تخرج شيئاً من هذا الدم.

ومع ذلك يذهب هذا الدَّم إلى جميع أجزاء الجسم بشُعَيْرَات دقيقة منظَّمة مرتَّبة على حسب حكمة الله وقدرته ، نبّه على ذلك الشيخ العثيمين في الشرح الممتع في أول الاستنجاء .

وقد نهينا أن نأكل كما تأكل الأنعام ؛ إذ قد ذم الله من كان حاله هكذا فقال تعالى : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَام)) فالمؤمنُ يستشعر نعمة الله فيحمد الله عند طعامه ويسم الله عند أكله ثم يحمد الله عند انتهائه . الأنعام أيها الأخوة لا تأكل لإقامة أرماقها ، وإنما تأكل للشره والنهم ، والمؤمن لا يأكل كما تأكل الأنعام .

إذن ذَكَرَ هَذِهِ المذكورات ، وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا أُمُورًا ثَلَاثَةً :

أَوَّلُهَا : الدَّلَائِلُ الدَّالَّةُ عَلَى التَّوْحِيدِ .

وَثَانِيهَا : الدَّلَائِلُ الدَّالَّةُ عَلَى القدرة على المعاد .

ثالثها : أَنَّ هَذَا الْإِلَهَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَى عَبِيدِهِ بِهَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الْإِحْسَانِ ، لَا يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَتَمَرَّدَ عَنْ طَاعَتِهِ وَلا أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى عَبِيدِهِ .

ثم قال تعالى بعد أنْ عدّد النعم : ((مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُم)) فيه تنبيه على نعم الخالق مع المتعة واللذة ، وأنَّ هذه النعم على الإنسان وعلى ما يؤول إلى الإنسان من نفع ، وأن ذلك متاع والمتاع لا يدوم إنما الذي يدوم نعيم الجنة ، لكن هذه المذكورات متاع مدة حياة الإنسان فهي تستخدم منها الفرش والأثاث وغيرها من مرتفقات الحياة ، المتاع : كل شيء ينتفع به مدة ثم يأتيه الفناء ، وهو يشمل كل ما فيه منفعة أو لذة من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب وكسوة وجمال وسائر المنافع .

قال القرطبي : لما ذكر أمر المعاش ، ذكر أمر المعاد ، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة ، وبالإنفاق مما امتنّ به عليهم .

وفي السياق تنبيه على مدة انتهاء هذا المتاع فقال تعالى : ((فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ)) والصاخة : اسم من أسماء يوم القيامة ، وقد تعددت أسمائه لعظيم أهواله نسأل الله السلامة .

والصاخة : الصوت الشديد الذي يصخ الأذان ، قال الخليل : الصاخة صيحة تصخ الآذان صخاً ، أي : تصمها لشدة وقعتها . والمعنى إذا جاء يوم القيامة بصوته المجلجل ثم بين لنا ربنا صورة من صور ذلك اليوم فقال تعالى : ((يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه)) والأرحام في هذه الدنيا يتزاورون وبعضهم يزور إخوانه كل يوم فبيّن ربنا شدة المطلع وأنَّ أقرب الأحباب يفر بعضهم من بعض ، وقد ذكر الله القريب ثم الأقرب فأخوه قريب وأقرب منه أمه وأبوه وأقرب منهما زوجته وبنوه ، ولهذا الفرار من ألصق القرابة له أسباب منها :

أولاً : إنَّه مشغول بما يهمه من حساب نفسه ، بل حتى الأنبياء يقول أحدهم : ((نفسي نفسي)) .

ثانياً : يفر منهم خشية المطالبة فالحسنات هناك حسرات والسياق بالتعبير بـ(من أخيه) يدل على ذلك .

ثالثاً : يفر عنهم لئلا يروا ما فيه من الشدة .

رابعاً : يفر لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً ، فالخطب أكبر من ذلك .

وتأمل جيداً قوله تعالى : ((**لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه**)) فلكل إنسان يومئذ شأن يشغله يوم القيامة روى الشيخان من حديث القَاسِم بْن مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا)) قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ : ((الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ)) .

والمرء : هو الرجل الكامل الرجولة ، فإذا كان كامل المروءة يفر من أقرب الناس إليه فهو من باب أولى يفر من الأبعد .

وذكر المرء بناءً على أنَّه الرجل لا الإنسان ، ليعلم منه حال المرأة من باب أولى .

وقلت في تفسير سورة عم يتسائلون : ((وَالْمَرْءُ : اسْمٌ لِلرَّجُلِ إِذْ هُوَ اسْمٌ مُؤَنَّثُهُ امْرَأَةٌ ، وَالِاقْتِصَارُ هنا عَلَى الْمَرْءِ جَرَى عَلَى غَالِبِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ ، فَالْكَلَامُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فِي التَّخَاطُبِ ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي شُؤُونِ مَا كَانَ خَارِجَ الْبَيْتِ ، وهذا فيه ملمحٌ ضد الاختلاط وأنَّ وظيفةَ المرأة الرئيسةَ بناءُ البيتِ الذي يمثلُ لِبنةً منْ لبنات المجتمع)) .

ثم بين الله حال الفريقين من الناس فقال تعالى : ((**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ**))

وبيّن حال الوجوه ، فالوجوه التي ابيضت فرحاً وابتهاجاً لما علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم والكرامة يزداد فرحها وبشرها وبهاؤها ، فالإسفارُ في الوجه أنْ يظهر في الوجه لونُ الإسفار ، وهو بياض النهار إذ هو نور الإيمان الذي كان نور القلب فيفيض على الوجه . مع الضحك فرحاً بنعمة الله مع البشر فـ(مسفرة) مُضِيئَةٌ مُتَهَلِّلَة بالمزيد فنعيم أهل الجنة بمزيد كما قال تعالى : ((**لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**)) . قال الراغب : استبشر ، أي : وجد ما يبشره من الفرح ، وبشرته : أخبرته بسار بسط بشرة وجهه ، وذلك أنَّ النفس إذا سرت انتشر الدم انتشار الماء في الشجرة .

ثم بين الله عسكر المجرمين فقال : ((**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ**)) عليها غبرة ، أي مسودة كما قال تعالى : ((**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**)) ووجوه الكفرة الفجرة مع سوادها فهي تزداد سواداً ((**تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ**)) أي : تغشاها وتحيط بها .

((**أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ**)) فالكفرة هم الذين كفروا بالله وجحدوا حقه وغيبوا الإيمان ، والفجرة في أعمالهم ، وفي الحديث في الكلام عن صفة المنافق : ((وإذا خاصم فجر)) والفجور قرين الكفر ؛ إذ لا وازع له من الإيمان يمنعه من الإثم فالكفرة جمع كافر والفجرة جمع فاجر فجمع الله إلى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور إلى الكفر ، فهم كفرة في حقوق الله فجرة في حقوق العباد .

والحديث عن الوجوه عوضاً عن أصحابها ذلك لما فى الوجوه من قدرة على التعبير عما فى النفوس من مشاعر حيث ينطبع عليها كلُّ ما يقع على الإنسان مما يسوء أو يسرّ .

قال الزهري : ((إنَّ هذا العلم أدبُ الله الذي أدب نبيه به نبيه ، وأدب النبي صلى الله عليه وسلم أدب به أمته ، وهو أمانة الله إلى رسوله ليؤدب على ما أدب عليه ، فمن سمع علماً فليجعله حجة فيما بينه وبين نبيه)) .

نسأل الله أن يحسن عاقبتنا في الدنيا والآخرة وأن يجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .